

ت. س. إليوت

١

ولد توماس ستيرز إليوت ، شاعر الإنجليزية الأول في فترة ما بين الحربين ، عام ١٨٨٨ لأسرة أمريكية تسكن سان لويس من أعمال الولايات المتحدة . وليس في حياته ما يستحق الذكر إلا أنه تلقى علومه بجامعة هارفارد ثم بالسوربون ثم بكسفورد ، وأنه اشتغل بالتدريس في جامعة كامبريدج ، ثم عين أستاذاً للشعر بجامعة هارفارد . وقد أمطرت عليه الجامعات البريطانية عدداً كبيراً من إجازات الدكتوراه الفخرية تكريماً له واعترافاً بفضلته على الأدب الإنجليزي . جمع إليوت قصائده المتفرقة الأولى عام ١٩١٧ ، وكان أهم ما في هذه المجموعة « أغنية العاشق ج . ألفريد پروفروك » ، وهي القصيدة التي لفتت إليه الأنظار . وهذه القصيدة تصوير للمفكر في القرن العشرين كيف يذبل الربيع في قلبه قبل الآوان . فستر پروفروك ، وهو لا يختلف في شيء عن مستر إليوت ، كهل يتقدم بخطبة فتاة عصرية تغشى الصالونات وتمجيد الحديث السطحي . ولكنه يتردد في ذلك كثيراً ، فهو يعلم أن الصلة بينهما غير واضحة ، وهو يعلم أن ينابيع الحياة قد جفّت فيه وأن رياشه الزاهية قد سقطت عنه ، وهو شديد الخجل من قصوره في ميدان الغرام .

« والنسوة في الغرفة ذاهبات جاثيات يتحدثن عن ميكلانجلو » .
« ولسوف أجد في وقتي متسعاً لأن أنساءل : كيف تجرؤ أيها الرجل ! بل كيف تجرؤ أيها الرجل ! أجل ، سأجد في وقتي متسعاً لأن أهرب من الموقف وأن أهبط السلم ، وفي وسط رأسي بقعة صلحاء . [وحين يرين البقعة الصلحاء سوف يقلن : يا لشعره ، كيف يتساقط !] وأنا في حُلَّة الصباح ، بنيتي عالية مستقرة ترتفع إلى ذقني ، وربطة رقبتى من النوع الممتاز ، ولكنها مثبتة بدبوس

بسيط السوف يقلن : نعم ، ولكن ذراعيه عجفاوان وساقيه ضامرتان [فكيف أجروا إذاً على إزعاج الكون ؟ فلا دخل لنفسى دقيقة لتأدير ، ففى الدقيقة متسع للعزم والعدول ، وللعدول عن العدول . »

وهو فى كل ذلك يخشى أن يرد خائباً . ويروعه فى نفسه هذا الإسراف فى التردد ، فيذكر الأمير هاملت سيد المترددين ويستدرك قائلاً :

« ما أنا بالأمير هاملت وما أرادتنى المقادير أن أكون . إنما أنا نبيل فى ركاب الأمير . وأنا نكرة كل نفعى أن ينتفخ بى جمع على مسرح أو أن أهد لفصل من فصول الرواية أو أن أنصح الأمير ، فأنا أداة لاربيب طيعة . وأنا جم الاحتشاد يسعدنى أن أخدم مولاي ، لبق حريص مسرف فى الدقة أكثر من الكلام الطنان ، ولكن بعض كلامى يمل السامعين وبعضه لا يخلو حقاً من الحماقة .

» لقد أدركتنى الشيخوخة ، لقد أدركتنى الشيخوخة . ولسوف يضر نخداى حتى تكثر الأطواء فى حجر سروالى . »

ولقد تروّعك فى هذا الشعر غرابته ، فهو لا يتفق مع النسق المألوف فى القريض التقليدى الذى نعرفه . ولكن هذه الطريقة الجديدة فى الأداء هى الخاصة التى تميز الشعر الإنجليزى فى فترة ما بين الحربين . فاليوم كل شئ يدخل فى تجربة ، ولا يشذ عن ذلك أساليب التعبير الفنى . والشعر الإنجليزى فى فترة ما بين الحربين شعر غامض ، ما فى ذلك شك ، ولقد يصل به الغموض إلى درجة الامتناع الكامل على الفهم ، وذلك راجع إلى جملة أسباب :

فالشعر التقليدى المعروف حتى ظهور إليوت يقوم على التابع المنطقى فى أى جزء من أجزاء السياق وفى السياق كله ، وما خرج على ذلك يعدّ هذيان محموم أو ترهات مجنون . أما الشعر الإنجليزى المعاصر فيقوم على التابع العاطفى وتتابع الذكريات قبل كل شئ . فإليوت يقول فى « الأرض الخراب » :

« أبريل أقسى الشهور ، فيه يزهر اليلج فى الأرض القواء ، وتمتزع فينا الشهوة بالذكرى وتنتعش الجذور اليابسة بأمطار الربيع . أما الشتاء فقد أدفأنا حين كسا الأرض بثلوج النسيان وأطعم الحشرات بالجذور اليابسة . والصيف أثار فينا العجب عند ما عبرنا بحيرة شتارنبرج وانهاالت علينا شآبيب الغيث . وقفنا بين الأعمدة وخرجنا إلى الهولفارتن ، وفى هذه الحديقة شربنا أقذاح

القهوة ومجاذبنا أطراف الحديث ساعة أو بعض ساعه تحت ضوء الشمس . كلا !
لست بروسية ، وإنما أنا ألمانية أصيلة ، ألمانية من لتوانيا . وحين كنا أطفالا تقيم
في قصر ابن عمي الأرشيدوق خرج بي الأرشيدوق ليتزلق على الجليد فاضطربت
نفسى . قال : يا مارى ! أمسكىنى بقوة يا مارى ! ثم بدأنا نتزلق . إنما نحسن
بالحرية بين الجبال . وأنا أقرأ عامة الليل وفي الشتاء أتقل إلى الجنوب . . . الخ »
وهذه الطريقة في الإنشاء لا تختلف في شئ عما يسمونه في التحليل
النفسى تداعى المعانى اللامترابط . فالمرضى يسترسل في سرد أفكاره أمام
الطبيب المحلل بلا قيد ولا نظام ، وكلما ألقى إليه الطبيب المحلل بكلمة ذكر أول
فكرة تجول بباله . ومن هذه الذكريات المنفككة يفتضح عقله الباطن وتخرج
إلى النور مكنوناته ومكبواته . وظهور الأساليب القائمة على التتابع العاطفى
وعلى التداعى اللامترابط نتيجة من نتائج الثورة على العقل التى عمت أوربا في
القرن العشرين بعد أن ثبت للأوربيين إفلاس العلم وعجزه عن تحقيق التقدم
المنشود للإنسانية في القرن التاسع عشر تحت حكم الرأسمالية التى وجهت العلم
لخدمة أغراضها المادية لا لتنظيم المجتمع .

ولعل من السينما قد ترك في الشعر الإنجليزى المعاصر بعد الأثر كما يقول
الناقد الشاعر سسيل داي لويس . فالطريقة المرعية في الإخراج السينمائى هى
الانتقال المفاجئ السريع من منظر إلى آخر دون اعتبار لصلات الزمان
أو المكان أو التسلسل المنطقى في عملية الانتقال هذه ، والاعتماد التام على وحدة
الفلم في مجموعه وعلى التتابع العاطفى وحده في أجزاء الفلم المختلفة كل على انفراد .
ومما زاد في غموض الشعر الإنجليزى المعاصر خضوع أصحابه للمدرسة الرمزية
في فرنسا وخاصة للأفورج ورمبو وثاليرى . وشعر إليوت بالذات أوضح ثمرة
لتفاعل هذه التأثيرات الواردة من القارة الأوربية في عقلية الشاعر ، ونتيجة
ذلك كله أدب لا سبيل إلى فهمه الكامل أو تذوقه الكامل إلا إذا كان القارئ
ملمًا بجميع اللغات الرئيسية وآدابها إلماما كافيا .

وفي عمود الشعر الإنجليزى خاصة ظلت ثابتة فيه حتى ظهور إليوت ، وتلك
الخاصة هى استيعاء الميثولوجيا اليونانية والرومانية وتأثر خطى القدماء في
فنون الإنشاء . فالشعراء الإنجليز من ويات في أوائل القرن السادس عشر
إلى تينيسون في أواخر القرن التاسع عشر قد استمدوا مادة أدبهم من أساطير

اليونان والرومان وفهم وتاريخهم ، واستخدموا آلهتهم وأبطالهم في التعبير الرمزي وفي المحسنات البديعية وفي الأخيلة بوجه عام . وقد كانت تذوق الشعر الإنجليزي في القرون الأربعة الماضية متوقفاً على إلمام القارئ بالتراث اليوناني والروماني . ولكن هذا الإلمام لم يعد كافياً لتذوق الشعر الإنجليزي المعاصر ؛ لأن جذور هذا الشعر لا تمتد إلى حضارة اليونان والرومان فحسب بل تمتد إلى أصول الحضارة الإنسانية بوجه عام . وإليوت مؤسس هذه المدرسة الجديدة يكثر من الاستعانة بالتراث المسيحي خاصة وأثر شاعر المسيحية الأول دانتي فيه صريح لا يقبل الجدل ، بل إنه لا سبيل إلى فهم إليوت أصلاً إلا بدراسة ملحمة دانتي المشهورة « الكوميديا الإلهية » . كذلك يستخدم إليوت ما تعلمه عند السير جيمس فريزر صاحب « الفصن الذهبي » من ميثولوجياً مقارنة بمهارة فائقة . ولقد تجدد في قصيدة واحدة من « الأرض الخراب » إشارات وتضمينات من سينسر وشكسبير ودائي وجولد سميث وفرلين ودانتي وأوفيد وبودا وسافو ، فهي ملتحقة ثقافات شرقية وغربية قديمة وحديثة وثنية ومسيحية . وهكذا الحال في بقية أعماله . وما هذه الظاهرة الجديدة في الشعر الأوروبي إلا نتيجة النشاط العظيم في تجارة الفكر بين الشعوب المختلفة واصطبغ الثقافة بالصبغة العالمية في جيلنا هذا . فالتشابك المطرد في اقتصاديات العالم الذي نجم عن الانقلاب الصناعي لم يعقد الحياة الإنسانية فحسب بل استوجب ظهور الحروب العالمية والمذاهب العالمية والنظم العالمية والثقافة العالمية ، وعلى الجملة أرغم شعوب الأرض على الخروج من حالتها الإقليمية والاتجاه نحو الوحدة والتفاهم في كل باب من أبواب النشاط المادي والفكري .

وإليوت إلى كل ذلك يمشو شعره باختبارات شخصية لا يشاركه فيها إنسان ، فن حوار عارض سمعه في مقهى « لست بروسية ، وإنما أنا ألمانية أصيلة » ألمانية من لتوانيا « إلى حادث جرى له » وخرج بي الأرشيدوق لينتلق على الجليد فاضطربت نفسي » . وهو لا يعمد لهذه الاختبارات الشخصية بل يدمجها في السياق إدماجاً دون رابط على طريقة التداعي اللامترابط . وهذه الخاصة في الشعر الحديث نتيجة انسحاب الفنان الفردي المشفق على فرديته منهزماً أمام القوى الحضارية الجديدة التي تسحق الفردية سحقاً ، وإصراره على إعلان اختبار

الشخصى الذى يعتر به كلما وجد إلى ذلك سبيلا ؛ فهى بمثابة احتجاج على روح المجموع التى انتشرت بمجىء الانقلاب الصناعى .
والحضارة الآلية التى تحيط بنا قد لوّنت خيال إليوت ونفذت إلى وجدانه .
لذلك نراه يكثر من استخدام التشبيهات الآلية ويحدث ثورة فى لغة الشعر لعزوفه عن التشبيهات المستمدة من الطبيعة . فهو يقول فى « بروفروك » :
« هيا بنا إذاً نخرج معاً حين يستلقى المساء على السماء استلقاء المريض المخدر على المائدة » . وهو يقول فى « موعظة النار » : « حين تخفق الآلة البشرية كأنها سيارة مأجورة تخفق فى انتظار راكبها » وهكذا دواليك .
فلا غرو إذاً أن كان شعر إليوت مثالا للجدة والغموض فى وقت واحد .
وقد جذبت طريقته هذه شعراء الشباب فى انجلترا ، أودن وسيندروما كنيس وسسيل داي لويس وغيرهم وغيرهم ، فإذا نحن أمام مدرسة عظيمة لكل من أبنائها طابعه الخاص ، ولكنهم جميعاً يبنون على أساس إليوت كثيراً أو قليلا .
فإليوت بهذا المعنى نقطة تحول فى تاريخ الشعر الإنجليزى ، وهو فى هذا لا يقل شأنا عن أصحاب التجارب المعروفة مارلو وملتون ودرايدن وشلى وهويتان وبقية الخالدين .

٢

وإليوت صاحب « أغنية بروفوك » ليس تماما الشاعر الفلسفى الذى نعرفه اليوم . فقد تطور فنه تطوراً محسوساً مع الأيام ، وهو يتقدم باستمرار من الخاص إلى العام ، ومن الاختيار المادى إلى الاختيار المجرد ، ومن العاطفة إلى الفكر . ولكنه رغم هذا التطور قد احتفظ ببعض الأفكار الجوهرية الثابتة فى جميع مراحل عمره . فإليوت القائل سنة ١٩١٤ : « لقد غرقت معين حياتى بملاعن القهوة » ، هو القائل سنة ١٩٣٥ : « بين التصور والخلق يسقط الظل . بين القلب والقلب يسقط الظل . ما أطول الحياة » ، وهو القائل سنة ١٩٤٠ : « قلت لروحي اهدئى ياروح ، فالأمل الذى تأملين أمل فى الباطل . قلت لروحي اهدئى ياروح ، فالحب الذى تحملين حب للباطل . لم يبق لك إلا الإيمان ياروحي ، ولكن الأمل والحب والإيمان كلها فى الانتظار » .

فهو شاعر متشائم حزين ، يضيق بالحياة ويحسد أنها عبء يبهظ روح الإنسان وهو يحزن صابراً إلى يوم خلاصه ، يوم يتحرر سره من بيت الصلصال . غير أن تشاؤمه الأول كان يمتزج بشيء من الميل إلى الدعابة والسخرية ، وحزنه في صدر حياته كان خالياً من المرارة ، ولقد كان يسخر من نفسه قبل أن يسخر من الحياة . فلما نشبت الحرب العالمية الأولى مر إليوت في أزمة روحية كبيرة وخرج منها شاعراً دينياً كامل الإعداد . وزال مرحه القليل وفقد الثقة بالحياة والأحياء وحل به يأس مميت . وفي عام ١٩٢٢ نشر « الأرض الخراب » وهي مجموعة من القصائد صوّرت فيها ضعف الحياة الإنسانية وعقم الحضارة . ولعلها أهم ما أنتج إليوت في الفترة الواقعة بين الحربين . وفي عام ١٩٢٥ نشر « الرجال الجوف » ، وهي أبلغ رثاء للعالم نعرفه حتى الآن . وفيها وصف إليوت القحل والمحل وجلس ينق على أطلال الدنيا ، وهي أشبه بقداس كثيب في كاتدرائية نخمة مخربة .

« نحن الرجال الجوف بالقش حشينا ، وبالقش حشيت رؤوسنا ، يتوكأ بعضنا على البعض الآخر . فوا أسفاه كلما همسنا خرجت أصواتنا الجافة هادئة خالية من كل معنى كأنها صوت الريح على الحشائش اليابسة أو ديب أقدام الجرذان وهي تمشي على الزجاج المكسور في مخاض الحمر ببيتونا .
« أما أولئك الذين انتقلوا إلى مملكة الموت الأخرى بلا تردد فلا يذكروننا .
فإن ذكرونا لم يذكروا أننا أرواح هائجة ضائعة بل ذكروا أننا الرجال الجوف .
« نحن أشكال بلا قوالب . نحن ضلال بلا ألوان . نحن قوى مشلولة . نحن إشارات بلا حركة .

« تلك العيون التي لا أجسر على مواجهتها في أحلامى لا تظهر في مملكة الموت ، مملكة الأحلام . فالعيون هنالك شعاع من الشمس يشرق على عمود محطم ، وهنالك شجرة تترجح وأصوات تسمع في غناء الريح بعيدة رهيبة ، أشد بعداً ورهبة من نجم يخبو .

« لست أريد أن أقرب من ذلك الشعاع ولا من تلك الأصوات في مملكة الموت ، مملكة الأحلام . دعنى لذلك أستخفى منها في جلد فأر أو في رياش غراب حقيقي أو في زى غراب المقات بين الحقول أتمايل مع الريح ، فلست أريد أن أقرب .

« كلا ! لست أريد أن أقرب من ذلك الملتقى الأخير في مملكة الشفق .
« هذه هي الأرض الموات ، هذه أرض الصبار . هنا أقنا الأصنام ، وهنا
يرفع الموتى أكتفهم ضارعين إلى الأصنام على مشهد من نجم خاب يتلأأ قبل
أن يتواري .

« أهكذا الحال في مملكة الموت الأخرى ؟ أنستيقظ هكذا وحدنا ونحن
نتنفض بالاشواق ، فإذا شفاهنا التي خلقت القبلات تنتم بالصلوات للحجر المحطم .
« العيون ليست هنا . فما هنا عيون في هذا الوادي الأجوف وادي النجوم
الخالية ، ما هنا عيون في هذه المملكة الضائعة ذات الفك المكسور .

« هذا مكان اللقاء الأخير ، وفيه نجتمع ونتحسس طريقنا معاً عند شط
النهر العارم ونتجنب الكلام وقد عميت أبصارنا فلا نجد ما نهتدى به إلا أن
تظهر العيون من جديد وتثبت أماننا كالنجم الخالد ، كالوردة كثيرة الأوراق
في مملكة الشفق ، مملكة الموت ، وهي أمل الرجال الجوف دون سواهم .

« ها نحن نرقص حول شجرة الصبار ، شجرة الصبار ، شجرة الصبار .
ها نحن أولاء نرقص حول شجرة الصبار في الساعة الخامسة صباحاً .
« بين الفكرة والحقيقة يسقط الظل . بين الحركة والفعل يسقط الظل . لك
الملك يارب .

« بين التصور والخلق يسقط الظل . بين القلب والقلب يسقط الظل .
ما أطول الحياة .

« بين الاشتاء ولحظة التحقق يسقط الظل . بين القدرة والوجود يسقط
الظل ، بين الأصل والفرع يسقط الظل . لك الملك يارب .
« لك الملك . . . ما أطول . . . لك الملك يا . . .

« هكذا تنتهي الحياة . هكذا تنتهي الحياة . هكذا تنتهي الحياة . تنتهي
بـزجـرة مكتومة لا بقرع الطبول » .

ولقد لوحظ أن الحروب الكبرى تنتهي عادة بطائفة من الظواهر بمضها
طبيعي وبمضها اجتماعي وبمضها نفسي ، فتكثر الأوبئة ويزداد عدد المواليد
من الذكور وتنتشر المذاهب الجديدة والأزياء الفاضحة والاستهتار الجنسي
وزعات التصوف والجمعيات الدينية ومخاطبة الأرواح . ولا غرابة في ذلك فالحن
تكسر روح الانسان ، وإليوت شاعر عامر بإنسانيته .

وقصائد « الأرض الخراب » و « الرجال الجوف » نماذج جيدة لهذا الحزن العميم . وشعر إليوت في فترة ما بين الحربين شعر الكارثة ، وفنه منصرف إلى استنباط الرموز الصالحة للتعبير عن جذب الحياة الإنسانية . وهذا الرمز في « الرجال الجوف » لون من التصوف المسيحي لأن فيها تصويراً لرؤى تجلت أمام الشاعر في عالم المجهول . ولكنه تصوف محدود لأن الرؤيا غير واضحة ، وهو تصوف مستعار من تأولات الغير وليس تصوفاً صادقاً مبنياً على الاختبار المباشر . وهو ثمرة اجتهاد المفكر في اختراق حجب الغيب أكثر منه إشراق الصوفي في ساعة الوجد . بل لولا تلك العيون التي يراها الشاعر في مملكة الموت تشرق كشعاع الشمس على العمود المحطم لما كان هناك تصوف ولا رؤيا . ونحن نحار في تفسير هذه العيون ولا ندرى أهى عيون الحكمة الإلهية أو عيون الضمير الإنساني أو عيون أخرى يراها إليوت وحده من دون خلق الله . ولكنها على كل حال تذكرنا بعيني بياتريس محبوبه دانتي اللتين جاء في « الكوميديا الإلهية » أن لهما ضياء يغشى الأبصار ويؤذى الناظرين . ولا حرج من هذا الفهم لأن إليوت لا يريد أن يقترب من الضياء لئلا يتلفه الضياء ، بل يريد أن يستخفي منه في جلود الفيران وفي ريش الطيور . كذلك تذكرنا الوردية كثيرة الأوراق بما جاء في « الكوميديا الإلهية » من أن الملائكة تجتمع في صورة وردة حول الله في أعلى طبقة من طبقات الفردوس . ولكن الخطر كل الخطر أن نحزم بشيء نهائي في هذا السبيل .

ويغض من صوفية إليوت أنه غاضب ويأس وحزين . والصوفية الحقبة تتنافى مع كل هذه العواطف الكدرة ؛ لأن الصوفية تقوم على الاندماج في الكل والاتحاد مع سر الكون وسقوط الغشاء الذي يعوق الخواس من التغلغل فيما وراء الظواهر . وحالة الاشرار هذه تبعث في النفس الرضا المطلق كما فعلت مع وردزورث وجيتي . وكيف يغضب أو ييأس أو يحزن من يرى وجه الله ؟ و « الأرض الخراب » و « الرجال الجوف » تعبران عن إرادة الموت الكامنة في المجتمع الأوربي ، تلك الإرادة التي نجدها واضحة قوية في كتاب شبنجلر « انهيار الغرب » . وإليوت لم يصل قط إلى الصفاء الأبدي ، أو النرفانا بلغة الهنود ، فهو إذاً ليس شاعراً صوفياً بل شاعر ديني على طريقة خاصة ، أو شاعر مسيحي كنسي .

وقد انتقل فعلاً من المرحلة الأولى من حياته الفنية ، مرحلة الغضب واليأس والحزن ، إلى المرحلة الثانية مرحلة الدعوة لعقيدة إيجابية ، فاعتنق الكاثوليكية على طريقة الإنجليز لا على طريقة روما ، وتزل عن جنسيته الأمريكية وتجنس بالجنسية الإنجليزية ، وأعلن في الناس أنه ملكي لا يقر المبادئ الجمهورية التي يسير عليها الولايات المتحدة ، وجهر بأنه محافظ يحافظ على التراث الإنساني من التجارب الخطيرة الجديدة . وفي عام ١٩٣٠ طلع على الناس بمجموعة جديدة من القصائد هي « أربعاء أيوب » وحيا مستمد من الروح الكاثوليكية ، ومن بعدها مسرحية منظومة هي « جريعة في الكاتدرائية » تصور مقتل القديس الإنجليزى توماس بيكيت في العصور الوسطى .

ثم دخل في المرحلة الثالثة من حياته الفنية عام ١٩٣٦ ولم يخرج منها إلى اليوم . وتتميز هذه المرحلة بانصراف إليوت عن الشعر الدينى واشتغاله بالشعر الفلسفى كما نعرف من ديوانه الأخير « أربع رباعيات » ، وهو محصول كهولته الأخيرة أو شيخوخته الأولى . وكأنما يؤسس إليوت من إذاعة جوهر الكاثوليكية في الناس فاكثفى بمخاطبة جمهور محدود من الأصفياء والمتأملين . وهو الآن شاعر يتأففى ، شاعر متأمل فيما وراء الطبيعة على نهج فكرى ، يعرف وظيفته ويرضى فيما يلوح بها ، لأن مرارته الأولى قد غادرته وإن بقى له حزنه الأول ويأسه الأول وهو فى الرباعيات الأربع ، يحاول كما يقول الناقد هاردينج أن يخلق فكرتنا عن الأبدية خلقاً جديداً . يقول إليوت فى الرباعية الأولى واسمها « بيرنت نورتون » : « لعل الزمن الحاضر والزمن الماضى كلاهما مشتمل فى الزمن المستقبل ، ولعل الزمن المستقبل مشتمل فى الزمن الماضى . وإذا كان الزمن بكليته حاضراً حضوراً أبدياً فالزمن بكليته ضائع بغير رجعة . وما كان يمكن أن يكون تجريداً له إمكانية دائمة فى عالم الافتراض وحده . وما كان يمكن أن يكون وما كان فعلاً يهدفان إلى نهاية واحدة حاضرة على الدوام . وفى الذاكرة يتجاوب وقع خطانا فى الدهليز الذى لم نطرقه ، الدهليز المفضى إلى الباب الذى لم نفتحه قط ، الباب المفضى إلى حديقة الورد . وهكذا تتجاوب فى ذهنك كلماتى . » ثم يقول :

« والزمن الماضى والزمن المستقبل لا يتركان للوعى مجالا كبيراً . والوعى لا يكون بالوجود فى الزمن ولكن بالزمن وحده نذكر لحظة الوجد فى حديقة

الورد، ولحظة الوجد في الشجرة التي لطمتها الأمطار، ولحظة الوجد في الكنيسة التي تخترقها تيارات الهواء حين يتكاثف الدخان . أجل تذكرها مشتبكة بالماضي وبالمستقبل . وبأزمن وحده تقهر الزمن . »

ثم يرشدك إلى طريق الخلاص فيأمرك أن

« إهبط إلى العالم السفلي ، إهبط إلى عالم العزلة الدائمة ، العالم الذي ليس عالمًا ولكنه ما ليس بعالم ، حيث الظلام داخلي ، حيث الفقر كامل وكل ملكية قد نزعت ، حيث عالم الحسن قد يبست أليافه وعالم الخيال قد خوى من أحلامه وعالم الروح قد بطلت وظيفته . فهذا العالم ليس بعالم هو الطريق الأوحده . »

وهو في الرابعة الثالثة واسمها « الصخور الثلاث » يتحدث عن السعادة فيقول :

« لحظات السعادة .. لست أقصد الإحساس بالانتعاش أو بلوغ الوطر أو

تحقق الهوى أو الطمأنينة أو العطف ، بل لا أقصد شعور الرضا الذي يأتينا من أكلة فاكهة ، وإنما أقصد الإشراق المفاجيء .. لحظات السعادة هذه عرفناها ولكن فاتها مغزاها . وأردنا أن نختبر المغزى فاختبرنا لحظات السعادة من جديد ، ولكنها عادت إلينا في قالب آخر ليس فيه مغزى يدخل تحت مدلول السعادة . »

فاليوت كما ترى يتقدم في شعره من الدين إلى الميتافيزيقا ، وهو يحدثنا عن لحظة الوجد في حديقة الورد وفي الشجرة المبتلة وفي الكنيسة التي تتناوح فيها الرياح ، وهو يحدثنا عن لحظة الإشراق وما يجلبه له من سعادة ، ولكنه يعترف دون وعي منه بأن الصوفي فيه قد أفلس أمام المفكر ؛ لأن لحظات الوجد عنده لا تطول من ناحية ويستعصى مغزاها على فهمه من ناحية أخرى . فهي كالرؤى التي كان يراها في مرحلة تدينه قصيرة وباهتة . ولست أزعم أن الصوفي يفهم ما يعمله نفسه من إشراق ساعة الاتصال بالمجهول ، ولكن إليوت يريد أن « يفهم » مغزى الإشراق ولا يكتفى باستيعابه والتعبير الخام عنه كما يجب أن يفعل الصوفي الأصيل . وهو في لحظة انبلاج النور هذه لا يزال واعياً يتذكر مدلول السعادة الأرضية كما نعرفها نحن القانون ويضاهيها بالسعادة الإلهية التي تغمره فيدرك أن بينهما اختلافاً . وهذه عملية عقلية تثبت أنه صوفي مزيف ، أو على الأقل أنه يجتهد التصوف اجتهاداً ولا يكتفى في تأملاته الميتافيزيقية بنزهة عقله وراء تخوم الأبد . ولعل إعداده الديني المسيحي الكاثوليكي الأول هو سر إصراره على استخدام حواسه في عملية الاتصال بالمجهول على طريقة المتصوفة .

مهما يكن من شيء فإن إليوت يمثل اتجاهها عظيم الشأن في القرن العشرين . وأصدق وصف له ولأمثاله من أدباء الكارثة قول الشاعر العظيم سبندر فيهم إنهم عوامل هدم في المجتمع الراهن ، وإليوت بينهم سيد الهادمين . فهو روح قديم هائم عابر القرون ، وهو عبقرى ولد بعد جيله بأجيال ، فزمانه الطبيعي هو العصور الوسطى وبيئته الطبيعية هي حضارة الإقطاع ، وهو نهاية مدنية بائدة أو زرجو أن تبعد .

عجز إليوت عن فهم الضرورات المادية والروحية في التطور التاريخي المشهود الذي أصاب المجتمع منذ الانقلاب الصناعي ، لأنه من فلول الأرستقراطية اللاصقة بالأرض ، فنقم على الآلة وعلى أصحاب الآلة وعلى حضارة الآلة ، وخيل إليه كما خيل إلى صاحبيه عزرا باوند ، وت . إ . هيوم أن الإنسانية قد انتحرت عام ١٧٨٩ ، عام الثورة الفرنسية البورجوازية التي وضعت حداً لنظام الإشراف ومهدت للنظام الرأسمالي . ولعل نشأته الأمريكية قد ضاعفت مقتله للبورجوازية ففي أمريكا تطورت الحياة الآلية تطوراً سريعاً خاطفاً مزعجاً عصف بأكثر القيم الإنسانية الموروثة . وفي أمريكا شاهد إليوت البلوتوقراطية في أشنع صورها ، أى حكم كبار المسؤولين ، تلقب نفسها زوراً بالديمقراطية ، وتموه على الشعب باسم الحرية وتكافؤ الفرص ، فكان طبيعياً أن يفضب ويحزن ويياس .

ولقد وجد فريق من الغربيين في الثورة الروسية العمالية ، ثورة ١٩١٧ مخرجاً من المحنة التي أنزلتها الرأسمالية ببني الإنسان . ولكن إليوت لم يجد في الحضارة العمالية شفاء للبشرية من أوجاعها الروحية ، بل وجد أن إحلال الشيوعية محل الفردية كالاستجارة من الرضاء بالنار . ففلسفة إليوت إذاً ثورة على ثورتين لا على ثورة واحدة ، ومن هنا كانت رجعيته الأكيدة . ولو أنه كان من أهل هذا الجيل لتفاءل رغم ما يراه من صور الدمار بدل أن يحزن ، ويظن بالإنسانية خيراً رغم وحشتها وأنانياتها وغفلتها بدل أن يضمر لها سوء الظن ويعلى على الناس عقمها الأبدي ولآمن بأن اليوم أجل من الأمس وأن الغد أجل من اليوم . ولكنه لم يفعل من ذلك شيئاً لأنه مفكر طبقي يندب طبقته التي اختفت وتختفي مع زبد القرون . قال في ص ٣٦٣ من كتابه « مقالات مختارة » :

« إن العالم يقوم الآن بتجربة ألا وهي تكوين عقلية متمدنة لا تقوم على الثقافة المسيحية، وسوف تخفق هذه التجربة . ولكننا لن نرى إخفاقها إلا بعد أجيال وأجيال . فلنصبر طويلا ولنحتفظ بالإيمان طوال هذه العصور المظلمة التي تنتظرنا لبنى الحضارة ونجدها وننقذ العالم من الانتحار . »

فهو ينظر إلى الكنيسة نظر الماركسي إلى الدولة الشيوعية أى يعدّها غاية الحضارة ودعامتها الأولى . وهو يخلط بين قيم الدين وقيم الدنيا ، حتى ليقحم بالكنيسة فى أخص شؤون الحياة الشخصية والاجتماعية كضبط النسل مثلاً ، فيقول فى ص ٣٥١ من « مقالات مختارة » إن « فى هذه المسألة قبل سواها لا مفر للإنسان من أن يستهدى المشتغلين بالشؤون الروحية ، فداء الضمير والحكم الشخصى لا يعول عليهما . كذلك ينبغى أن تقدم مشورة القساوسة على مشورة الأطباء بصفة قاطعة لأن مشورة الأطباء مضطربة . » وهو يحض على اتباع تعاليم الكنيسة فى تربية النشء فيقول فى ص ٣٤٩ إن « التأمل والدراسة وتعذيب النفس والتضحية هى المادى التى ينبغى أن يراض عليها الشباب » . ولقد يبدو هذا الرأى فكرة تربوية مألوفة ولكنه عند إليوت مرادف لفكرة الرهبانية . حتى السياسة لم تسلم من لفتاته ، ولقد تقرأ بعض نظرياته الاجتماعية فى ص ٢٠ من كتابه « البحث عن الآلهة الغريبة » فتخال أنك تقرأ صفحات من كتاب هتزل « كفاحى » :

« ينبغى أن يكون الشعب ذا صبغة واحدة ، حينئذ التقت ثقافتان فى صعيد واحد فالمنتظر أن تتناصرا أو تفسدا إحداها الأخرى . وأهم مافى الموضوع أن يكون التراث الدينى فى الشعب متحدا . والدواعى العنصرية والدينية تجعل كثرة المفكرين الأحرار من اليهود أمراً غير مرغوب فيه . كذلك لا بد أن يكون هناك توازن واضح بين نمو المدينة ونمو الريف ، بين التطور الصناعى والتطور الزراعى ، ثم إن الإسراف فى التسامح أمر مريب . »

وهذا الاتجاه الفاشى فى إليوت منطوق مع أركان فلسفته الأخرى ومع رسالته الفنية . وإذا لم نجد بأساً من أن نقول إن الفاشية إجمالاً هى الإقطاعية الصناعية اتضحت أصول هذا الاتجاه وأمثاله فى الشاعر الرجمى الناقد الرجمى توماس ستيرز إليوت .